الشعر العمودي والصورة الأدبية

أ. محمد التركي التاجوري

الشعر العمودي هو الشعر الملتزم بالوزن والقافية والسائر على الأسس التي حددها علم العروض المتعارف عليه في مجال الشعر ودراساته ،وحاول الباحثون أن يحددوه ويعرفوه حسب إدراك كل منهم لمفهومه ، فعرفه بعضهم وذكر عناصره بعد النية بأنه يتكون من أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية ،فهذا هو حد الشعر لأن من الكلام كلاما موزونا مقفى وليس بشعر لعدم الصنعة والنية ،كأشياء أثرت من القرآن ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر وعرفه بعضهم الآخر بأنه قول موزون مقفى يدل على معنى، والأسباب في ذلك هي المفردات التي يحيط بها حد الشعر وهي اللفظ والمعنى والوزن والتقفية،وعرفه ابن خلدون فقال:هو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد هو القافية ..

وقال غير واحد من العلماء :الشعر ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعة والتشبيه الواضح وما سوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن[1]..وعرفه الشاعر محمود سامي البارودي في مقدمة ديوانه فقال :الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماء الفكر فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألائها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان فينبعث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ويهتدي بدليلها السالك، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاضه وانتقلت معانيه وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سليما من وصمة التكلف بريئا من عشوة التعسف غنيا عن مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد ،فمن آتاه الله منه حظا وكان كريم الشمائل طاهر النفس فقد ملك أعنة القلوب ونال مودة النفوس،ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم

إلا تهذيب النفوس وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التي ليس وراءها لذي رغبة[2]مسرج وارتياد الصهوة التي ليس دونها لذي همة مطمح ..

وإذا تأملنا بدقة في هذه التعاريف المختلفة لوجدناها مع كل ما فيها من الاختلاف الظاهر في التعبير تدور حول لفظتين جوهريتين :

ـ أولاهما ننظر للشعر من جهة تركيبه و تنسيقه في عباراته وقوافيه وأوزانه ، وما فيها من دقة وحسن تنسيق وائتلاف وتقابل وسوى ذلك مما له اعتبار ووزن وتقدير في هذا المجال المحسوب بكل ما فيه من دقة وشمول ..

ـ وثانيتهما ترى الشعر قوة حيوية مبدعة مندفعة دائما إلى الأمام ترى الحياة من واقعها الذي تدور فيه دون إضافة أو حذف .. وفي الحقيقة والواقع أن الشعر ليس الأولى وحده ولا الثانية فقط بل هو كلاهما معا..

وبالإجمال الشعر هو الحياة باكية وضاحكة وناطقة وصامتة ومولولة ومهللة وشاكية ومسبحة ومقبلة ومدبرة[3] ،والطريقة العمودية في الشعر عند القدماء هي المحاكاة لطرائق الأقدمين في التعبير فهي بذلك ليست قاصرة على الوزن والقافية وحدهما بل تشمل اللغة والصور،فقول الشاعر :

وليل كموج البحر أرخى سدوله * علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل * بصبح وما الإصباح عنك بأمثل
فيا لك من ليل كأنه نجومه * بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وقول آخر :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول آخر يصف شعر محبوبته

فكأنني وكأنها وكأنه صبحان * باتا تحت ليل مطبق

ليس منحصرا من الناحية الشعرية في الوزن والقافية بل كان للغة والخيال والصورة فيه الدور الكبير ، والصورة في هذا الصدد هي الصورة الأدبية التي تعد كل من الصورة الشعرية والصورة الخيالة نوعا منها ؛ لأن الصورة في إطارها العام الذي هو أسلوب التصوير تشمل الشعر والنثر إلا أنه في الشعر تطغى عليه العاطفة والخيال، وفي النثر يغلب عليه التجرد منهما أو الإقلال من كثافتهما .

2- والعمل الأدبي يتألف من عناصر مهمة في تكوينه واعتباره عملا أدبيا يشد الانتباه حوله،ولهذه العناصر يتفاوت الاهتمام حسب طبيعة الموضوع الذي يتناوله العمل الأدبي ، وهذه العناصر هي الفكرة والخيال والعاطفة والشكل أو الإطار[4]العام الذي يؤدي به العمل الأدبي سواء كان هذا العمل نثرا[5]أو شعرا، والمعنى في هذا الصدد هو الشكل أو الإطار العام الذي يقدم به العمل الأدبي ونطلق عليه الصورة الأدبية أو المنهج التصويري الذي يصور به الأديب ما يدور في نفسه وما يعانيه من هموم ويقدمه في الصورة التي نراها ونتناولها بالدراسة أو مجرد الاطلاع والمعرفة ورغم أهمية العناصر التي يتألف منها العمل الأدبي فإن الصورة أو منهج التصوير فيه من أعمق الجوانب التي يدور فيها الإنتاج الأدبي، ويهتم النقاد بها الاهتمام الكبير لما تحدثه من آثار وتعكسه على العمل الأدبي من قيمة وفاعلية وتأثير بعيد،والصورة الأدبية العامة نستطيع أن نستخلصها من العمل الأدبي نفسه الذي يقدمه لنا الأديب أو الكاتب أو الشاعر،فهو يتناول فكرة ويحاول أن يوصلها إلى عقولنا بواسطة اللغة مشافهة أو كتابة،فإذا كان الذي عنده عاطفة وفكرة وأداهما إلينا كان ذلك أدبا غير أنه إذا كانت الأفكار هي المقصودة من العمل الأدبي الذي يقدمه لنا وجاءت العاطفة لتزيدها قوة وروعة كان ذلك أدبا عاما كالتاريخ مثلا،وأما إذا كانت العاطفة هي المقصودة من العمل الأدبي،وجاءت الفكرة لتسندها فقط فإن ذلك يعد أدبا خاصا مثل الفنون الرفيعة

كالشعر والنثر القصصي،وكيف يستطيع الأديب أو الكاتب أن يبعث في نفوسنا العاطفة كالتي في نفسه إذا كان معجبا أو محبا كيف يثير فينا روعة الإعجاب أو لوعة الحب؟ وهذا أمر ممكن بان يسلم إلينا الباعث الذي أثار عاطفته لعله يثير مثلها في نفوسنا.إلا أن الفنون لا تتخذ هذه الوسيلة المباشرة لتهييج المشاعر.[6]

والأدب أبعدها عن سلوك هذه السبل ؛ لذلك كان مضطرا أن يلجأ إلى وسائل أخرى غير مباشرة ليوقظ بها النفوس ويهيج بها العواطف ، وهذه الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه وسامعيه تدعي الصورة الأدبية أو الشكل ..

3ـوالعاطفة لا تثار بدرجتها أو تحليلها أو التفكير فيها وإنما تثار بعرض بواعثها وذلك لا يكون إلا بالخيال فهو أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجته،وهو يتناول العاطفة للتعبير عنها ولإثارتها.

ومن هذه الخواص :

1) لغة العاطفة التي ينبغي أن تكون مألوفة جزلة بعيدة عن المصطلحات العلمية والكلمات الغريبة،حيث إن الدرجة العلمية والتحليلية لا تفيد في إثارة الإحساس الأدبي،ولابد أن يكون القصد إلى العواطف عن طريق غير مباشرة إيحائية اقتراحيه رمزية.

2) تختلف العبارة باختلاف العاطفة ،فإذا كانت العاطفة متوسطة أو قصيرة الأمد دعت إلى سهولة

العبارة وجمال الصور والإيجاز الكافي،وإذا كانت العاطفة عميقة خالدة متصلة بأصول الحياة وطبائع الناس تطلبت تعبيرا جزلا سديدا و صورا محكمة تختلف من التمثيل والكنايات والمطابقة ونحوها وقد تحتاج إلى الصور الخيالية المتعددة وبسطة القول لظرافتها وحاجتها إلى الإسهاب و الإطناب وإطالة الشرح.

3)والصورة الأدبية مرتبطة بالمعاني اللغوية للألفاظ ولجرسها الموسيقي ومعانيها المجازية وحسن تأليفها معا، الأمر الذي ينشأ عنه تأثير معنوي عاطفي وتأثير موسيقي يعين في قوة العاطفة وسرعة تأثيرها وهو ما يسمى حسن النظم أو جمال الأسلوب .

4) والعاطفة تختلف باختلاف الأدباء ويترتب عن ذلك اختلاف الصور الأدبية التي تؤدي هذه العواطف،فالشعراء مثلا يتناولون شيئا واحدا يعجبون به إلا أن سبب الإعجاب أو مستواه يختلف بينهم، فإذا بالصورة الأدبية متباينة مع الشعور الواحد في أصله الذي اشتركوا فيه ،وهذا كأنه يؤكد لنا الارتباط الشديد بين المادة والصورة،فأي تغيير في أحداها[7] يؤدي إلى تغيير الأخرى ولا يمكن أن تفصل قيمة إحداهما عن الأخرى،وهذا في الأدب أمر واضح، وفي الحقائق العلمية أقل وضوحا فقد نقول:أن مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين ثم نقول:إن القائمتين تساويان مجموع زوايا المثلث ،

فالغاية واحدة،وإن تغيرت أوضاع القضية بين المسند والمسند إليه، وحيث كانت الصلة بين المادة والصورة شديدة الارتباط فإن إسناد قوة التأثير أو جمال البيان إلى أحداهما دون الأخرى أمر غير سديد، ذلك أن اللفظ والخيال بالنسبة إلى العاطفة وسيلة لنقل المعني ولا قيمة لهما بدونه،والمعنى لا يحيا إلا باللفظ، وللنقاد العرب خلاف كبير في الترجيح بين هذين العنصرين لا يكاد يخلو منه كتاب أثاروه في نطاق قضية اللفظ والمعنى ..وبالرغم من التلاؤم الطبيعي بين المادة والصورة فلا يمكن اعتبارهما شيئا واحدا؛ ذلك أن الصورة وسيلة لنقل المادة والشيء المسلم به أن الوسيلة غير الغاية ،وذلك واضح حين ندرك قصور الصورة عن نقل ما في نفس الأديب إلى سواه، والواقع أن هناك اختلافا بين الفكرة والعاطفة في الأداء اللغوي؛إذا اللغة تعبير طبيعي للأفكار ولا يحتاج الكاتب معها إلا لجهد يسير لعرض أفكاره بوضوح ودقة بعباراتها الطبيعية المعروفة ولو كانت عميقة أو كثيرة أو معقدة،ولا يتم تصور فكرة في عقل إنسان بدون كلمة تدل عليها ،فلن توجد المعاني في العقل

إلا باللغة،وأما العاطفة فإنها قوة نفسية غير محدودة المعالم،ولما كانت كذلك وكانت هذه اللغة المحدودة المعاني عاجزة عن التعبير الطبيعي عنها اضطر الأديب أن يبحث عن لغة لهذا العنصر الوجداني،

فظفر بهذه الصورة الأدبية التي ترجع إلى عنصرين هامين الخيال والعبارة الموسيقية المؤثرة ، أما الخيال فمن عناصره التشبيه و الاستعارة والكناية وحسن التعليل، وأما العبارة فمن خواصها جزالة الكلمة وحسن جرسها وسلامتها من العيوب البلاغية والنحوية ونظم الكلام وحسن تأليفه مطابقا للمعاني،على أن التعبير باللغة في هذا الصدد من مكنون النفس بهدف التأثير على المتلقي .

4) والصورة هي العبارة الخارجية للحالة الداخلية ،وهذا هو مقياسها الأصيل ،وكل ما تصفه بها من جمال وروعة وقوة إنما يرجع إلى هذا التناسب بينها وبين الصورة من عقل الكاتب ومزاجه تصويرا دقيقا خاليا من الجفوة والتعقيد،فيه روح الأديب وقلبه نقرأوه كأنا نعامله،ومن مقاييس الصورة أيضا قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة ..

هذا هو المعنى العام للصورة الأدبية،وهو يتناول جميع وسائل التعبير ويدخل فيه الخيال والعبارة ،ويوجد للصورة معنى آخر يختلف مع هذا المعنى ويضيق عنه من جهة أخرى؛فإن النقد الأدبي يميز كثيرا بين[4] الصورة وبين الطريقة في الرواية أو المقالة أو الكتاب،حيث يقصد بالصورة هنا منهج الكتاب وخطته العامة من حيث المقدمة والفصول والخاتمة وتناسقها معا وبراءتها من الشذوذ والاضطراب،ويقابل الصورة بهذا المعنى طريقة التعبير أو الأسلوب في الأدب ،وللصورة بهذا المعنى الضيق شرط يشمل جميع خواصها ،وذلك هو الوحدة التي لابد من توفرها في أي أثر أدبي فالمقالة تكتب في موضوع واحد لشرح فكرة واحدة والرواية تؤلف لعرض حدث واحد، وجميع العناصر الثانوية خاضعة لهذه الوحدة ،والوحدة تتضمن الكمال والمنهج والتناسب فالكمال يستلزم ألا تنقص الصورة شيئا

أصيلا وألا تقبل شيئا غريبا أو لغوا باطلا ويستوي في ذلك الفن البسيط مثل المقالة والقصيدة والرسالة والفن المركب مثل الرواية ،وأما المنهج فهو تأليف أجزاء الرواية أو الكتاب أو المقالة مما في النظام صحيح ومتناسب ،وهذا النظام قد يكون منطقيا كما في المقالات والأبحاث،وقد يكون عاطفيا فتتجاوز العواطف التي تقوى التأثير المتزن،

وأما التناسب فيتحقق بأشياء عدة منها :

1) إبعاد العناصر التي لا تلاءم الموضوع في الرواية أو المقالة أو البحث ولا تتصل به .

2) حذف كثير من التفاصيل والأجزاء التي تعرقل حركة البحث أو تضعف العاطفة وفي بعض الأحيان يخرج الراوي عن حقائق التاريخ أو مألوف الحياة تخفيفا للتناسب في القصة التي تناولها .

3) الجمع بين حقائق ومشاعر متباينة ولكنها تسير في التيار العام للأثر الأدبي .

4) مراعاة الوزن للعاطفة المصورة فقد يكون البحر الطويل أنسب للفخر وبحر الهجر أنسب للطرب وبحر الرجز أنسب للعلوم وهكذا .

ويقابل الصورة بمعناها الأخير الأسلوب وهو التعبير عن العناصر التي تكون الوحدة الموضوعية ،وقيمته الأدبية تقاس بما ينطوي فيه من قوة وجمال أو رقة ووضوح ..

5) والصورة إجمالا لا تستخدم لاستكشاف[10]شيء آخر والمهم فيها هو ذلك الاستكشاف ذاته أي معرفة غير المعروف لا المزيد من معرفة المعروف،وهي ترتبط بكل ما يمكن استحضاره في الذهن من مرئيات أي ما يمكن تمثله قائما في المكان كما هو شأن الصورة في الفنون التشكيلية،أما القصيدة فمجموعة من التوقيعات قد تشتمل على مثل هذه الصورة المكانية إلى جانب الصور الحسية الأخرى الضرورية والمهمة في تشكيل الصورة الشعرية ،على أن هذه

الصور بعد ذلك تعبر في مجملها عن حركة تحقق ونماء نفسي تجمل من القصيدة في مجملها صورة واحدة من طراز خاص يتحقق فيها نوع من التكامل بين الشاعر والحياة.

والصورة في مداها البعيد هي ..الشعور المستقر في الذاكرة الذي يرتبط في سرية بمشاعر أخرى ويعدل منها وعندما تخرج هذه المشاعر إلى الضوء وتبحث عن جسم فإنها تأخذ مطهر الصور في الشعر أو الرسم أو النحت،وكأن بعض القدماء كالرماني يرى أن الصورة الأدبية تتألف من عنصرين أساسيين متكاملين لا غنى لأحدهما عن الآخر وهما للصورة بمثابة وجهي العملة ،

وهذان العنصران هما الوظيفة التعبيرية للصورة والقيمة الجمالية لها، وأية[11]صورة بلاغية تفتقر إلى هذين العنصرين أو أحدهما يعتبرها خارجة عن نطاق البلاغة،وقد عرف البلاغة على ضوء ذلك بأنها إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ،فهو يرى كمال الصورة الأدبية في مدى إسهامها في إيصال المعنى المراد من جهة ،وما تحفل به من جمال فني من ناحية أخرى،وقد تأثر بهذا الاتجاه في فهم الصورة الأدبية كبار النقاد في الدراسات البلاغية،منهم أبو هلال العسكري في كتابة الصناعتين والخطابي في كتابه بيان إعجاز القرآن،والباقلاني في كتابه إعجاز القرآن،وابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة،وابن رشيق في كتابه العمدة، وابن أبي الأصبع في كتابه بديع القرآن وغيرهم.

والصورة الأدبية من أهم ميزاتها اعتمادها على العاطفة وقوتها ،فهي تعبر عن إحساس الأديب ومشاعره سواء كان هذا الإحساس ذاتيا أو موضوعيا يتناول الجانب الخاص لهذا الأديب أو جوانب الحياة والطبيعة وواقع الناس،وأما الصورة الخيالية وهي جزء منها،فهي أشمل من ذلك وأوسع غير أن الإحاطة بها وفهمها بدقة يتطلب فهم الخيال وتعريفه،وذلك أمر شاق حيث إن هذه الكلمة ترد في العبارات مبهمة عامة،وقد قال[12]رسكن:إن حقيقة الخيال غامضة صعبة التفسير وينبغي أن يفهم في آثاره فحسب..

وهذا الكلام يصدق على جميع مواهبنا الروحية التي لا تخضع للمقاييس الحسية خضوعا كاملا ومع ذلك ينبغي أن نحاول التعرف على الخيال بآثاره الصادرة عنه ..

فإذا تصورت حيوانا له جسم الخروف ورأس الإنسان فهذا التصور خيال من غير شك،وإذا تصورت البقرة والحصان اللذين رأيتهما في الليلة الماضية كان هذا تذكرا بصريا لأني استحضرت شيئا بصريا سابقا وكذلك إذا تصور نحات صورة عقلية لشكل يريد نحته في قطعة من الرخام أو غيره كان ذلك خيالا أيضا،

وفي هذه الأمثلة حين نتأملها نلاحظ أن العناصر التي ألفها الخيال قليلة ومدركة بحاسة البصر ، والصورة الخيالية التي يرمي إليها في هذا الصدد أبعد من ذلك بكثير وأهم ،فإذا ابتكر الرائي شخصية لرجل أو امرأة لها صفات مؤلفة تأليفا طريفا لم تكن تعهده من قبل ولو كانت كل صفة بمفردها معروفة للمؤلف من قبل ، فالجديد هو التأليف الذي يلائم بين هذه الصفات ببراعة أدبية لها آثارها المقررة ، فهذا خيال أسمى من الصورة الأولى لعناصره الكثيرة وتعقدها وحسن تنسيقها الأمر الذي يجعل هذه الصورة تؤتي ثمارها في نفوس القراء والمشاهدين بالرغم من أن العملية الخيالية بصفة عامة في الصورتين واحدة من جهة الاختيار والتأليف إلا أنها تتفاوت في البساطة والتركيب والبراعة ،

وحين نتأمل شخصية الكندي في بخلاء الجاحظ وشخصية منافس ابن زيدون في حب ولادة وهو ابن عبدوس في الرسالة الهزلية نجد لكل منهما أوصافا تمثل البخل في الأول والغرور المضحك في الثاني،وعملية الخيال الابتكاري هذه لا تدبر تدبيرا إراديا منطقيا تجمع فيها الأوصاف انتظارا لنتيجتها،و لكن تخضع هذه الأوصاف لقانون التناسق الذي يحقق أثرها على الوجدان وتتداعى عناصرها المخزونة في الذاكرة لتسعف الأديب بما يريد وينبغي أن يسعف به،

6ـ يقول[13]ركسن في معرض حديثه عن الشعراء والرسامين: أن كلا من الشاعر والرسام يجذب إلى ذاكراته كل ما رأى وسمع طول حياته ويحفظه بدقة في هذه الذاكرة كما تحفظ المواد في المخازن الكبيرة ، فالشاعر لا ينسى حتى أبسط النغمات التي سمعها أوليات حياته والرسام يحفظ أدق طيات الأقمشة وأشكال الأوراق والأحجار،وفي كل هذا الحشد المنوع الكثير يسبح الخيال البارع فيؤلف منه مجموعة الآراء المتناسقة تناسقا دقيقا وحيث أن الإنسان ذو تجارب ومشاهدات متعددة تتكون منها هذه المجموعة الخيالية فإن الخيال الخالق يستطيع أن يؤلف من الصور ما لا يحيط به ..

وهذا يوضح دور الخيال في حياتنا العقلية فهو الذي يلائم بين ما فيها من حقائق ويكون منها أشكالا مثالية لحوادث ماضية وأخرى ينبغي أن تكون، ولا يقف التأثير الذي تحدثه التجارب الإنسانية على حال اليقظة وإنما يستمر حتى في حالة المنام[14]حيث يرى الإنسان في نومه أحلاما جميلة وصورا مؤلفة من تجاربه وإذا استيقظ أدرك بعدها عن الواقع ،وذلك لأن الموازنة بين قوانا المعنوية أثناء النوم مفقودة إذ العقل نائم لا يوقف الخيال عند حدوده المعقولة والخيال نشط يتحرك كيف يشاء، ومع ذلك أيضا فقد يعتري الإنسان وهو يقظ ما يشبه الحلم فينشط خياله ويتصور من الصور ما هو غريب وبعيد عن الواقع ،وهذا يسمى وهما وهو يعمل بحرية ولا يخضع للقوة العاقلة، فيعمل الخيال إذا انصب على تأليف العناصر المعروفة من قبل فإذا كان هذا التأليف اختياريا لصورة جديدة دعي خيالا ابتكاريا ، وإذا كان استبداديا سمي وهما .. ويرى النقاد أن هذا الشيء خيال تأليفي ومثاله إذا لاحظنا شجرة مورقة تزينها الأزهار والثمار في الخريف وتغرد في أفنانها الطيور، فلما حل الشتاء لاحضناها هزيلة عارية الأفنان مجردة من الثمار والأزهار تعصف بها الرياح الباردة وقلما يأوي إليها عصفور فقد وصفنا هذه الشجرة في حاليها وصفا حقيقيا وقارنا بين حاليها في الخريف والشتاء وإذا وصفها،أديب لم يقتصر على هذه الخواص وإنما يصف

بجانب ذلك أثر هذا التغير في نفسه ،وهذا يعني أن هذه الصورة الحسية المقارنة تبعث في نفس الأديب شعورا خاصا ينشأ عنه صور أخرى تلائمه نتيجة خياله وتأمله فيقول: كم أثارت هذه اللحظة في نفسي من عبر وعظات عجبا لتلك الأوراق المصفرة المتعلقة بأغصان عجفاء تهتز في هذا الجو البارد وقد كانت منذ حين منابر للطيور الصداحة !أهكذا يطوى العمر ويذهب الشباب !!.. فهنا نجد صورتين استدعت إحداهما الأخرى صورة الشجرة في حاليها استدعت صورة الإنسان في حالي شبابه وهرمه ،وهذا يخالف ما عرفناه في الخيال الابتكاري إذ ليس هذا ابتداع صور حسية ، بل الصورة الحسية هي التي بعثت في النفس صورة جديدة ،وهناك نوع ثالث[15] للخيال يسمى الخيال البياني أو التفسيري ومثاله قول ابن خفاجة الأندلسي يصف زهرة :

ومائسة تزهي وقد خلع الحياة * عليها حلى حمرا وأردية خضرا

يذوب لها ريق الغمائم فضة * ويسكب في أعطافها ذهبا نضرا

فهذا الخيال ليس ابتكاريا يعني بتأليف صور جديدة وليس استخدام صور حسية لبعث مشاعر تستدعي صورا تشبهها وإنما هو تفسير لجمال الزهرة وتعبير عن مغزاها الحقيقي،وهذا النوع من الخيال هو الغالب في أدبنا العربي وهو خير وسيلة لوصف الطبيعة وصفا أدبيا رائعا لأنه قائم على إدراك جمال الأشياء وأسرارها مع اختيار العناصر التي تمثل هذا الجمال تمثيلا قويا ..

7. وهذه العناصر الثلاثة للخيال لا ينبغي أن يتوهم أنها تحيا منفصلة متضادة في الآثار الأدبية لأنها كثيرا ماتتجاور وتتمتزج متعاونة على تصوير عواطف المنشئين وبعث عواطف القراء والسامعين،وللصورة الأدبية بمختلف أنواعها الشعرية والخيالية مضمونها الذي

هو هدفها من واقع ما ترمي إليه ، وقد وضح من خلال ما يدور فيها من خيال أن أنواع الخيال الذي يتسلسل خلالها ثلاثة هي:

1)الخيال الأبتكاري مثل قول الشاعر أحمد الفقيه حسن متغزلاً:

فتاة من الفرنج كالبدر في الحسن * تميس بقد يخلب اللب كالغصن

سبتني وابقتني حليف صبابة * ودمع على خدي من العين كالعين

وما كنت قبل اليوم أعرف ما الهوى *إلى أن وقعت اليوم في شرك الحسن

2) الخيال ألتأليفي مثل قوله يصف غناء أم كلثوم :

غنت فاطربت الجوارح كلها * وهفت لسمع غنائها الأرواح

حمل الأثير لنا صدى ترصعيه * في ليلة فيها السماع تباح

أشجت قلوب العاشقين بنغمة * قاموا لها متحسنين وضاحوا

وإذا تحركت العواطف لامرئ * برخيم صوت ما عليه جناح

قد جددت فينا الحياة ولم يزل * للحرب بطش سائد وكفاح

وغدت تذكرنا السلام وإنه * عهد جميل ذكره فواح

يا حبذا عهد السلام وحبذا * فيه الحياة فإنها أفراح

3)الخيال التفسيري مثل قوله أيضا يصف بلدة المعمورة وقد لجأ إليها أيام الغارات في الحرب العالمية الثانية سنة 1941م :

يا سائلي عن قرية المعمورة * سألت عن ضاحية مشهورة

أرض يطيب المكث والإقامة * فيها لمن يرغب في السلامة

سماؤها صافية الأديم * وأرضيها صافية النعيم

قد بعدت عن جملة الأهداف * وحفها الرحمن بالألطاف

لا يعدم الخائف فيها مأمنا * ويجد القاصد فيها مسكنا

8ـ وبما أن الأدب بصورة شاملة سواء كان شعرا أو نثرا يلعب فيه الخيال دوره الكبير والصورة من أساس مقوماتها الخيال والعاطفة والإطار، فالصورة في الشعر العمودي وقعها مثل الصورة في الشعر الغير العمودي إلا أنها في غير العمودي تخلو من الجرس الموسيقي وقيد الوزن والقافية ،وربما كان وقعها في النثر الفني مثل ذلك إلا إنها في النثر غير الفني غالبا ما يكون الخيال والعاطفة فيها باهتين رغم أن ذلك كله أدب وصور من التفكير والتعبير عما يعانيه الشاعر والناثر والأدب بوجه عام،فالشعر عموديا وغيره من جوهر خصائصه ما يقدمه ويبرزه من صور وأسلوب يلعب فيه التصوير دوره البعيد .

الهوامش والمراجع :

1) أحمد الشائب،أصول النقد الأدبي،القاهرة ـمكتبة النهضة المصرية ط جـ ـ1973م ص 275 ـ296

2)عمر الدسوقي في الأدب العربي الحديث، دار الفكر ط ج 1973م جـ1 ـص234

3)ميخائيل نعيمة ،المجموعة الكاملة ،المجلد الثالث، بيروت،دار العلم للملايين 1971م، ص396

4)أحمد أمين النقد الأدبي .ط.ب .بيروت لبنان دار الكتاب العربي 1967م.ص 44و76

5)عز الدين إسماعيل.الأدب وفنونه،القاهرة،دار الفكر العربي،ط 1972،5 م،ص22 ـ24

6)أحمد الشائب ، المصدر السابق ،ص242 ـ255

7) المصدر السابق

8)المصدر السابق

9)المصدر السابق

10)عز الدين إسماعيل،الشعر العربي المعاصر،بيروت.دار العودة ودار الثقافة،ط جـ1972م،ص135ـ141

11)علي عشري زايد .الصورة البلاغية عند ابي الحسن الرماني .الثقافة العربية .السنة الثالثة،العدد الثامن ،أغسطس 1976م .

12)أحمد الشائب ،المصدر السابق. ص211ـ ـ219.

13)المصدر السابق

14)المصدر السابق

15)مصطفى ناصف. الصورة الأدبية ، القاهرة .دار مصر للطباعة 1958م،ص39ـ41

التدبير مع كتابة المقادير

هذا كتاب "التنوير في إسقاط التدبير "للإمام أحمد بن عطاء الله السكندري جاء في مقدمة التحقيق لهذا الكتاب لمحققه محمد عبد الله الشاغول ، وهو كتاب عزيز نادر في

موضوعه نافع في مادته، وهو نور بين يدي قارئه ،يعلمنا فيه الإمام كيف نسقط التدبير مع الله ،وكيف نفوض أمر الرزق لله،وكيف نتوكل على الله ، وكيف لا يكون لنا حول ولا قوة مع الله ،وكيف نريح أنفسنا من كدر التدبير ،وكيف نرضى بما قسم الله لنا ، و كيف نصل إلى مراد الله منا في ذلك ، إلى غير ذلك من الكنوز التي لا يعلم قدرها ألا المؤمن العاقل الحريص على السعادة في الدارين .

وكذلك يوضح المحقق أنه اعتمد في تحقيقه لهذا الكتاب على نسخة مخطوطة وأخرى مطبوعة ثم يبدأ الكتاب بترجمة للمؤلف حيث عرفه بأنه الإمام العارف الرباني أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الل الشيخ تاج الدين أبو الفضل الجزامي السكندري ـأصله من الإسكندرية ثم قطن مصر الشاذلي ، ثم أوضح مذهبه الفقهي حيث نقل رأي تاج الدين السبكي بقوله : أراه كان شافعيا ،وقال غيره كان مالكيا .

وأن له اليد الطولى في العلوم الظاهرة والمعارف الباطنة، إمام في التفسير والحديث ، والأصول ، متبحر في الفقه ،وله وعظ يعذب في القلوب ،ويحلو في النفوس ،وكان قد تدرب بقواعد العلوم الشرعية ،وهذبته العلوم ، فاستدل بالمنطوق على المفهوم، فساد بذلك العصابة الصوفية .

أما عن مشايخه فمنهم الشيخ ياقوت ـ رضي الله عنه ـوقبله الشيخ أبو العباس المرسي ، ومن تلاميذه شيخ الشافعية التقي السبكي ، وأنه أخذ عنه جمع من الأعيان .

ومن مؤلفاته كتاب " الحكم العطائية " وهو أشهر كتبه ، وقيل فيه ما هذا منشور ، إن هذا إلا لؤلؤ منثور ، وله كتاب " تاج العروس وأنس النفوس " ،وكذلك كتاب " لطائف المنن في مناقب سيدي الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن " ،وله رسالة في الكلام على قوله تعالى ((وإذا جاءك الذين يؤمنون بأياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سواء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم)) ،

وله رسالة " هتك الأستار في علم الأسرار " ،ومن كراماته أن الكمال ابن الهمام زار قبره ـ رضي الله عنه ـ فقرأ عنده سورة "هود"حتى وصل الى قوله تعالى ((فمنهم شقي وسعيد)) فأجابه من القبر بصوت عال : يا كمال ليس فينا شقي ،فأوصى الكمال بأن يدفن هناك .

أما ما ذكر عن وفاته قيل توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة تسع وسبعمائة ، ودفن بالقرافة بقرب بني الوفا ، وقيل أنه توفي سنة سبع وسبعمائة كما جاء في "الطبقات الكبرى " .

ثم تأتي مقدمة المصنف حيث بدأها بقوله "الحمد لله المنفرد بالخلق والتدبير ،الواحد في الحكم والتقدير ، الملك الذي ليس لهفي ملكه وزير ، ثم أوضح أنه من طلب الوصول إلى الله فحقيق عليه أن يأتي الأمر من بابه ،وأن يتوصل إليه بوجود أسبابه ،وأهم ماينبغي لك الخروج عنه والتطهير منه : وجود التدبير ومنازعة المقادير ،

فصنف هذا الكتب مبينا لذلك ومضهرا لما هناك وسماه " التنوير في إسقاط التدبير"ليكون اسمه موافقا لمسماه وذكر قوله تعالى ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)) (النساء 65)، وقال سبحانه ((وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون))(القصص 68)، وقال سبحانه ((أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى)) (النجم 24-25)،

وقال صلى الله عليه وسلم " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا"" وقال صلى الله عليه وسلم " اعبد الله بالرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير "إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على ترك التدبير ومنازعة المقادير إما نصا صريحا وإما إشارة وتلويحا ، وقد قال أهل المعرفة : من لم يدبر

دُبر له ،وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ:إن كان ولابد من التدبير فدبروا أن لا تدبروا ،وقال أيضا :لا تختر من أمرك شيئا واختر أن لا تختار ،وفر من ذلك المختار ، ومن فرارك ، ومن كل شيء إلى الله وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ثم ذكر المؤلف مجموعة من الآيات التي يستدل بها على موضوعه وقام بتفسير ما جاء فيها . ثم ذكر فائدة حيث يقول فها : اعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أن يقوي عبدا على ما يريد أن يورده عليه من وجود حكمه ألبسه من أ،وار وصفه ،وكساه من وجود نعته فتنزلت الأقدار وقد سبقت إليه الأنوار ، فكان بربه لا بنفسه ، فقوى لأعبائها وصبر للأوائها ، وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام ،وإن شئت قلت : وإنما يقويهم على حمل البلايا واردات العطايا ، وإن شئت قلت :وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه

ثم يقوم المؤلف بشرح كل هذه الأقوال كلاً على حدة ، ثم يذكر بعد ذلك انعطاف في قوله سبحانه ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما))(النساء 65) اعلم أن الأوقات ثلاثة : قبل الحكم، وفيه ، وبعده ، فأما قبل الحكم فبعبوديتهم التحكيم ،وأما في الحكم وبعده فبعبوديتهم عدم وجدان الحرج لأنه ليس كل حكم فُقد الحرج منه، أي :قد يحكم ظاهرا والكراهة عنده موجودة ،فلابد أن ينضم إلى التحكيم فقدان الحرج . قال له القائل : إذا لم يجدوا الحرج المستلزم لثبوت التسليم الذي هو من صفته وجود التأكيد ؟ فالجواب عنه : أن قوله تعالى ((ويسلموا تسليما)) في جميع أمورهم ، فإن قلت : إن ذلك لازم من قوله تعالى ((حتى يحكموك)). فالجواب أن التحكيم ما أطلقه بل قيده بقوله ((فيما شجر بينهم))فصارت الآية تتضمن ثلاثة أمور : الأول منها التحكيم فيما اختلفوا،الثاني : عدم وجود الحرج في التحكيم

،الثالث: وجود التسليم المطلق فيما شجر بينهم وفيما نزل بهم في أنفسهم فهو عام بعد خاص .

ثم ذكر عنوان مقامات اليقين وقال فيه :وإن تبين هذا فأعلم أن مقامات اليقين تسعة وهي : التوبة، والزهد ،والصبر، والشكر ،والخوف، والرجاء ،والتوكل، والمحبة ، والرضا،ولا يصح واحد من هذه المقامات إلا بإسقاط التدبير مع الله والاختيار ،ثم ذكر كل واحدة من هذه المقامات وشرحها بالتفصيل .

ثم ذكر أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك وقام لك في كل ذلك بوجود إبرارك ،فقام لك بحس التدبير يوم المقادير، وذكر قوله ((ألست بربكم قالوا بلى)) ((الأعراف 172) .

ثم كان ذلك شأنه في بقية الكتاب ما بين انعطاف وبيان وإعلام وفصل ، حيث أورد في فصله الأخير

مناجاة من العبد لربه في شأن الرزق والتدبير ، وختم كتابه بدعاء فيه من البلاغة والبيان ما تقشعر له الأبدان .

وفي الختام أقول أن الكتاب جدير بالاقتناء وجدير بالقراءة وأنه بتحقيقه أضيف للمكتبة الإسلامية صرح جديد ويستحب لكل مسلم أن يقتنيه ويتصدر مكتبته وهو مهم لكل باحث وطلب علم ، وأُجل الكاتب أكبر أجلال وأثني على المحقق الذي أثرى به المكتبة العربية حيث يستحق منا كل الثناء والتقدير